

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا
وَنُرْدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ
الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ رَاصِحٌ يَدْعُوهُ إِلَى
الْهُدَى أَتَيْنَا قُلُوبَ هَٰؤُلَاءِ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا
لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذي صنعت تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدتها ؟ . وهذا أول منطلق في بطلان الوهية غير الله ، فمن عبد الشمس مثلاً ماذا أعطته الشمس ؟ ومن كفر بها كيف عاقبه الشمس ؟ . إنها تشرق لمن عبدها وللمن لم يعبدتها . والصنم الذي عبده ، ماذا صنع لهم ؟ لا شيء . وهذا الصنم لم ينزل عقاباً على من لم يعبد ، بل إن الذي انتفع هو من لم يعبد الأصنام ؛ لأنه أعمل فكره ليبحث عن خالق لهذا الكون . وهكذا نجد النفع والضرر إنما يأتيان من الإله الحق : « ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله » والإنسان دائماً حين يسير فهو يقطع خطوة إلى الأمام فيقتصر المسافة أمامه ، أما من يرد على عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التي خطاها .

وهذا حديث المؤمنين الذين يرفضون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم آمنوا وساروا في طريق الهدى ، وليس من المنطق أن يرددوا على أعقابهم وأن يفتخروا بخاسرين .

« كالذي استهوته الشياطين في الأرض » كلمة « شيطان » منصوب بها عاصي الجن . والجن جنس مقابل للإنس ، وما دام في الإنس طائعون وعاصون فكذلك في الجن طائعون وعاصون .

والحق قال :

﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَىٰ
الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۚ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾

« سورة الجن »

إذن فمن الجن من هو مؤمن . ومن الجن من هو عاصٍ . والعاصي من الجن يُسمى شيطانا . وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التي ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقي وفلسفي بين وجود الشيء وبين إدراك وجود الشيء . والذي يتعب الناس أنهم يريدون أن يوحّدوا ويربطوا بين وجود شيء وإدراكه . وهناك فارق بين أن يوجد أو يدرك ؛ ذلك أن هناك ما يكون موجودا ولكنه لا يدرك .

﴿ قُلْ أَتَدْعُونِ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَىٰ عَلَىٰ أَفْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ۖ ﴾

« من الآية ٧٦ سورة الأنعام »

جاء هذا التصور في صورة استفهام . إن الحق طلب من رسوله أن يقوله ، فكان الصورة : أن نوما هداهم الله إلى الحق فدُعُوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا مالا ينفع ولا يضر ، فبردوا على أعقابهم ، أي بعد الهداية ، وهذه هي صورة الحيرة والتردد ؛ لأنهم كانوا على هدى ، ثم دُعُوا إلى أن يعبدوا من دون الله مالا ينفع ولا يضر . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة لهذه الحيرة ، ولهذا التردد ، فقال : « كالذي استهوته الشياطين » .

و « استهوته » من عادة « استعمل » وتأتي دائما للطلب ؛ كقولنا « استفهم » . أي طلب الفهم ، و « استخرج » . أي طلب الإخراج للشيء . « فاستهوته » طلبت هويته . أي جعلته يتقبل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أي دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه بأن صار عجيبة تشككه الشياطين كما تشاء . وترد مادة « الهاء » والراء والياء « لمعان » . إن مُدَّتْ ؛ فهي الهواء الذي نتفسه « وما به أصل الحياة » وإن قُصِرَتْ ؛ فإنها هي الهوى وهو ميل النفس إلى شيء ، أو نكون هويّا أي سقوطاً .

إذن قلادة تأتي إما للهواء إن كانت مملوكة ، وإن كانت بالقصر فهي من الهوى
أو من الهوى : كان تقول : « هوى ، يهوى ، هوى » أى سقط من علو إلى أسفل ،
وهوى ، يهوى ، هوى . أى أحب . وهكذا نعرف أن «استهوته » أى طلبت هوى أو
هواء لى ميل نفسه إلى اتباع الهوى ، وحين تستهوى الشياطين الإنسان فهي تريد أن
تجذبته إلى ناحية هواء ، وتوقف الهوى فى النفس ، وبذلك تدعوه ليهوى . والحق
يقول :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢١)

(سورة الحج)

وحين يخر عبدا من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان
سحيق ، وحين تأتي إلى الهوى والهوى فاعلم أن الهوى يجذبك إلى ما يضرك ،
ولذلك لا نعلم ما إلا أن يكون هواك تبعا لما جاء به الحق ، ولكن إن اتبعت هواك
فلا بد أن يودى بك إلى الهوى :

﴿ كَأَلَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَبْرَانَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

وما هى الحيرة ؟ هى التردد بين أمر ومقابلته . وعرفنا من قبل أن الحيرة فى هذه
الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابهم ورجع ، ولكن له
أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنهج ؛
لذلك يكون حبران : بين هاوية وغماة ، والشىء الذى يهوى لا استقرار له ، وحين
نرى - على سبيل المثال - حبرا يهوى للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه
صورة معبرة ، ويأتى له القول الفصل :

﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فُؤَادِي لَيْتَ الْهُدَى إِلَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

فمن يتبع إذن ؟ إنه يتبع الذين يدعونه إلى منهج الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الهدى

هو المنهج والطريق الموصل للغاية ، والصنعة لا تضيع غاية لنفسها ، بل الذي يضع الغاية هو من صنعها ، وصبق أن قلت : إنَّ التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصون نفسه ، بل يضع ذلك مَنْ صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ غايته بمن خلقه ، والذي يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة ممن خلقنا ، وهدى الله هو هدى الحق .

وجاءت « الهدى » هنا لتعطينا يقيناً إيماناً في إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا في إله واحد ، لا تختلف أهوائنا أبداً ، لأنه هو الذي يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلُّ منا خاضعاً لقانونه ، لا يدلُّ أحد منا لأحد آخر ؛ فأننا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غضاضة عليك ولا غضاضة على . وحين يريد البشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يُذل الآخرين له ويأخذهم على منهجه وعلى مبدئه ، وهو في الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحققة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، ويشاند المجتمع ويتعاقد ولا يتعاند ، ويتوجه الهوى إلى محبة منهج الله .

﴿ وَلَوْ أَنَّبِ أَلْحَقْ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

من الآية ٧١ سورة المؤمنون ،

ولهذا جاء الدين ، لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان .

ونذكر جميعاً قصة ملكة صبا ومبيدنا سليمان عليه السلام حينما قالت : (وأسلمت مع سليمان) . ولم تقل : أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غضاضة أن نكون قد أسلمت فهي ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتي التشريع من أعلى ، لا غضاضة لأحد في أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لآخر بل كلنا عبيد لله . وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعاً سادة .

وتمثل الهدى في الإيمان بإله واحد . ونأخذ هذا الإيمان بأدلتنا العقلية . إننا ندخل عليه من باب العقل ، ونسلم أمرنا له ، لأنه هو أعلم بما يصلحنا .

﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

«من الآية ٧١ سورة الأنعام»

وقوله تعالى :

﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ﴾ ٧١

هنا تجد الأمر بثلاثة أشياء : نُسَلِّمُ لرب العالمين ، ونقيم الصلاة ، ونطيع سبحانه ، لماذا ؟ ، لأن كل الأعمال الشرعية التي تصدر من الجوارح لابد أن تكون من ينبع عقيدة في القلب .

وكيف نسلم لرب العالمين ؟ . أي نعمل ما يريد وننتهي عما ينهى عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابي ، وننتقي الله أي نتقي الأشياء المحرمة وهو أمر سلبي ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زمامنا له ، لتأتي حركتنا في الوجود طبقاً لما رسم لنا في ضوء «افعل» و«لا تفعل» ، وحركتنا في الوجود إما فاعل وإما ترك . والفعل أن تقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ، والترك أن نتقي المحارم ، وهذا كله إنما يصدر من ينبوع العقدي الذي يحمله قوله : ﴿لنسلم لرب العالمين﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شيء فهو يعلم أنك صالح للفعل وللتترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صالح ألا تفعل ، وإذا قال : «لا تفعل كذا» ، فأنت صالح أن تفعل ، ولو كنت لا تصلح لأن تفعل لا يقول لك : افعل ؛ لأنك مخلوق على هيئة نستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق في الإنسان ، أما بقية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار .

مثال ذلك : الشمس ، إنها ليست حرة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس حراً أن

يهب أو لا يهب ، والأرض في عناصرها ليست حرة في أن تكسها أو لا تكسها ، لكن الإنسان مميز بقدرته على أن يختار بين البدائل ؛ لذلك لا بد أن يكون صالحاً للأمير ، والخطأ إنما يأتي من أن تنقل مجال « افعل » في « لا تفعل » . أو مجال « لا تفعل » في « افعل » . والمؤمن يأخذ منطقياً « افعل » في مجال « افعل » ، ومنطقياً « لا تفعل » في مجال الترك .

وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهي يناسب التكوين البشري . وانت تشترك مع الجسد في أشياء ، ومع النبات في أشياء ، ومع الحيوان في أشياء ، وتفوق على الكل بقدر الاختيار التي منحك الله إياها .

ولتوضح هذا الأمر أقول : لنفرض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك في البحر صندلاً تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن قانون الجسد ينطبق عليك ، فليس لك إرادة أن تقول : « لا أريد أن أقع » وهكذا ترى الجسدية فيك ، وانظر إلى « النمو » الذي لا تتحكم فيه ولا تقدر أن تقول : « سأتم اليوم بزيادة في الطول قدرها نصف المليمتر » بل أنت لا تعرف كيف تنمو ، وأنت لا تعرف كيف ينضج قلبك ، ولا سرّ الحركات الدودية للأمعاء ، ولا حركة المعدة ، أو حمل الكبد ، أو حركة التنفس التي بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك .

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين في هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد ذلك خلق لنا الاختيار في التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى في الأفعال التي تقع من الإنسان لا في الأفعال التي تقع على الإنسان ؛ لأن الأفعال التي تقع من الإنسان هي التي فيها اختيار وبسببها العقل أولاً . لينفذها الإنسان بمد ذلك . ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج ، لأنه لا توجد قوة تفهروا على غير ما يختار . أما المجنون فليس عليه تكليف ، لأنه لم يطر المسألة في رأسه قبل أن يفعل . وكذلك من لم ينضج ، لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المقهور على فعل بكرة إنسان أو سلطان أقوى منه .

وهكذا نعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان في تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد قهر .

ويتابع الحق : ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ ولو أن المسألة - مسألة الإيمان - مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لنتبه إلى أن هناك غاية . واضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد التلميذ مثلاً إن حضر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أو لا ، ذكر أو لم يذكر ، ألا يظهر كل ذلك في شهادة نهاية العام ؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل ؛ لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار ، أي أنك صالح لتفعل أو ألا تفعل ، ولذلك يرشدك الإيمان إلى العمل الصالح ، لأن هناك غاية ؛ إنك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت « افعل » في مجال « لا تفعل » ، أو « لا تفعل » في مجال « افعل » . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فخذها خوفاً من الجزاء والحساب .
ثم يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ
وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلِيمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهِيدُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٧٢)

والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وما دام الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، بقول سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَخَبِيرٌ بَالِغُ الْأَعْيُنِ وَأَنْتُمْ لَا تَوَدُّونَ ﴾

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ يَغْفِرْ عَمَدٍ مَّرْوِيَّاتٍ ﴾

« من الآية ٢ من سورة الرعد »

وهنا يقول الحق : ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ؛ إنه خلقك أنت بخلق عجيب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو القائل :

﴿ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة غفر »

وحين ينظر الإنسان في تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝١١ ﴾

« سورة الذاريات »

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق ، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، إنك ستعلم أحوالها تبعاً وأنت ستتهنى مع الأيام ، إلى سر جديد في هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم في البحث العلمي وآلات السير وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الألوان المستطرفة التي نضع فيها سائلاً ينفذ في أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما نسميه بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائي ، ويوجد أيضاً استطراق حراري ، ويتمثل الاستطراق الحراري حين تأتي بالمدفلة في الشتاء ونجلس في الغرفة ، ونشعر بالحرارة التي تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهي سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى في البشر جميعاً حتى في القطب الشمالي والقطب الجنوبي !! فلماذا لم تستطرق درجة حرارتك مع

الجو ؟ ولماذا لم يأخذ الجو البارد من حرارتك لتسفرى درجات الحرارة ؟ .

إن ذلك يشي أن لك ذاتية تجعلك وحدة مستقلة عن الكون الذي نحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء ٣٧ درجة ، وفي القطبين ٣٧ درجة ، هذا عجيب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين ٣٧ درجة لانصهرت ، لذلك نجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد التي تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهي مجموعة في شكل واحد ومع ذلك لا تستغرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

ومثال آخر من عملية التنفس ، فحين تدخل ذرة من غبار في مجرى النفس نجد السعال قد هاجم الإنسان ليطرد هذه الذرة وتجد أنك قد سعلت قسراً إلى أن تطرد هذه الذرة ، فهل أنت قد سعلت بقرار منك ؟ لا ، بل هو عمل لا إرادي خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محوطة بتغليظات متتابعة ليحتفظ بحرارته التي تبلغ أربعين درجة ، لأنه لا يؤدي مهبطه إلا عند هذه الدرجة . وكذلك نجد أن الأذن هي أول عضو يشعر بالبرودة ؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾

« من الآية ٧٢ سورة الأنعام »

لقد خلق الحق السموات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بشيئ ، فهو القائل :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَبْجُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

« سورة يس »

فلننّ تريد النظام دليلاً على حكمة الخلق الموجد لهما في النظام الأعلى .
وبما من تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، لهما في الأفراد ؛ لأنه

لو حصل شلوه في الكون الاعلى لفسدت السموات والارض ، لكن عندما يرجد
أحى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل في الكون ، ولذلك نجد الشفوة إنما
يأتى فيما فيه عوض ، والنظام يأتى فيما فى تركه فساد . كما يقول سبحانه :
﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الانعام)

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهتدم سبحانه السماء والارض
ويتهوى الدنيا وينزلها ، فتمور السماء ، والكواكب تستر وتتساقط ، فإن ذلك يحدث
أيضاً بالحق ، فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنتهاء الخلق
وإفناؤه وإزالته أيضاً دليل عظمة ، لأنه سبحانه قال في البدء : « كن » فكان
الكون ، وفي النهاية يقول : « كن » فيكون إنتهاء الخلق ليحيط للمحسن جزاء
إحسانه ، ويحاسب المسيء ، لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولا بد له
من ثواب ، والمسيء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهى
الحياة ليأتى يوم الحساب لينال كل جزاءه .

إذن فخلق السموات والارض حق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، فالخلق في
الإيجاد والحق في الإعدام ، إنه حاصل في بدء الخلق ، وفي نهايته .
﴿ وَكَانَ أَمْلَكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْعُيُودِ عَنِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الانعام)

وهل كان الملك يوماً لغير الله ؟

في هذا المقام علينا أن نتنبه إلى أن فيه ملكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه ملك
ويقال لصاحبه ملك . والملك ما تملكه ، فقد تملك جلابيك الذى ترتديه . أما الملك
فهو أن تملك من يملك ، فهذا اسمه ملك ، وربنا سبحانه وتعالى في دنيا الاسباب
جعل لكل واحد منا ملكاً ، وجعل لبعض علينا ملكاً فبقوا ملوكاً ، لكن في الآخرة
لا يوجد شيء من هذا ، لذلك يقول الحق :

﴿لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

من الآية ١٦ من سورة غافر

وفي الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفني عندك وتعطيني أجراً ، وقد تملك أنك تطبخ لي طعامي أو تعطيني طعاماً ، أو تملك أنك تخطط جلابي ، لكن في الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً ، لأننا نحيا في الدنيا بالأسباب التي منحنا الله إياها ، وفي الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ ولوسلسلتها قبل أن ينفخ في الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط ، لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنها أرض معاد ، لذلك قال :

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾

من الآية ٤٨ من سورة إبراهيم

والأرض التي نحيا عليها مخلوقة لاستمرارها ، ونحرث جزءاً منها للزراعة ، ونبنى بيوتاً على جزء آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسباباً يتوافق بعضها مع بعض ، فأنا لا أستطيع أن أحرق إلا بمحرث ، وكذلك من يرغب في استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب في استخراج البترول يأتي بالآلات التي تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل توجد في بدء زاوية واحدة ، ويأتي الزوايا في أبدى بقية الخلق .

وحين تسلسل الأسباب التي نحيا بها سرّج للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهي يد المخلوق وأسبابه تضيق به فإن يد الخالق جلت قدرته مبسوطة إليه دائماً ، وإياك أن تفرك الأسباب ولكن تسلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى الله .

ولوسلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطق الحق ، فالطفل الصغير يرقب ظاهرة في البيت ، هي زر في الحائط ، عندما يضغطون عليه بأصبع واحدة بضئ المصباح ، فيقلدهم ، وحين يراه أخوه الذي يدرس الإعدادية يقول له :

لا تصدق أن الضوء يأتي من هذا الزر بل هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنزل ، وحين يسمعها من هو أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير الذي في موقع ما من المدينة ، وقد صنعتها المعامل والعقول حتى ينتهي الشرح فيصل إلى فكرة التيار الكهربائي المستخلص من شلالات الأنهار مثلاً .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك ورائها حلقات غيبة لو سلسلتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه قد احترم ديننا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلك ، ولكن نقول لكل مُلك : إن هذا المُلْك ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلْك أبداً . وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَقْهَمُ مَنَّا الْمَلِكِ ﴾

ومن الآية ٢٦ من سورة آل عمران :

إذن فليس هناك من له المُلْك بذاته إلا الله .

والحق يقول هنا :

﴿ وَهُوَ الْمَلِكُ يَوْمَ يُفْخَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

من الآية ٢٢ من سورة الأنعام :

يفتح في الصور نفيد الإبدان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت من كان حياً ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتي ويقومون .

وكلمة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أولى أنه يعلم الشهود . وهذا تمييز دقيق ، وإنه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جزاء لا عن تحكم ، ولكن عن حكمة .

ويذلل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ والحكيم هو الذي يضع كل أمر في مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شيء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أسداً ، لأن من يظلم إنما يريد أن يتفجع بالشئ الموجود لدى المظلوم ،

سورة الأنعام



وربنا لا يتنفع بحاجة من هذه ، بل يشبعنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان تجده كله عزة ، وأنت تجد الناس تكرر كلمة « عبودية » ، وتقوم حروب من أجل تحرير البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها مختلف ، لأن العبودية للبشر ، نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها أن العبد يأخذ خير سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزة ، أما العبودية للبشر فهي ذلة .

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَمَرَ بِعَبْدِهِ نَبِيًّا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾

« من الآية ١ من سورة الإسراء »

فقد أخلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد : نم ملء جفنيك ، فإن لا تأخذني سنة ولا نوم ، وأنا قيوم ، وإن احتجت مني إلى شيء ما فادعني وسأمد لك يد العون بما يناسبك ، فهل في هذه العبودية لله شيء غير العزة ؟ !

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَأَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا
الْهَةَ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يعطى له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبره على مشقات الدعوة ، لأن الدعوة للإسلام في أوله أرهقت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فيريد سبحانه أن يعطيهم مثلاً حدثت للرسول ، وهنا يأتي الحق بخبر عن أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم :